مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 52 (خريف 2002)، ص 182

اليهودية بين حضانة الشرق الثقافية وحضانة الغرب السياسية

د. عفيف فرّاج

بيروت: دار الآداب، 2002. 232 صفحة.

من المؤكد أن ثمة حاجة ملحة إلى الدراسات الجدية والمعمّقة عن اليهودية وتاريخ الشعب اليهودي والحركة الصهيونية، بعيداً عن أجواء التعصب والشوفينية، وبروح أكاديمية موزونة. وتأتي هذه الدراسة لتملأ فراغاً في أدبياتنا العربية المعاصرة، ولعلها تمهد الطريق للمزيد من هذه الأبحاث.

ينطلق المؤلف في هذا البحث من سؤال مركزي يشكل المحور الأساسي للبحث وهو: لماذا عجز اليهود عن الاندماج الكامل في أوروبا الغربية؟ ويفسّر د. عفيف فرّاج هذه الظاهرة بالإشارة إلى سببين رئيسيين: أولهما، كون اليهودية – بحسب مفهومه – ثقافة شرقية تتسم بخصائص حضارية خاصة بالشرق ويصعب اندماجها في الغرب؛ ثانيهما، العامل الاقتصادي والاجتماعي، إذ إن الأكثرية المسيحية الأوروبية اعتبرت اليهودي مخلوقاً مختلفاً تماماً وعاملته ككائن معادٍ أو مغاير، وذلك لأسباب متعددة سنتطرق إليها لاحقاً. وفي الإمكان الاتفاق مع د. فرّاج فيما يخص السبب الثاني المتعلق بعدم تقبل أوروبا لليهود لأسباب اجتماعية واقتصادية، إلاّ إن من الصعب الاقتناع بالسبب الأول المتعلق بالخصائص الثقافية المفترضة لليهود.

لكن قبل تسجيل بعض الاختلافات في الرأي والتأويل التاريخي، لا بد من إيراد بعض العوامل الأساسية التي يفصّلها هذا الكتاب، والتي شكلت عوائق اقتصادية واجتماعية أمام القبول باليهود كمواطنين عاديين في أوروبا الغربية عبر القرون. في المرتبة الأولى، يعالج المؤلف مسألة الخصوصية المالية التي فرضت على اليهود ممارسة الربا في ضوء الحظر الذي فرضته الكنيسة الكاثوليكية على الدَيْن بالفائدة. وكرست هذا الحظر عدة مؤتمرات كنسية، كما شدد عليه فيلسوف الكنيسة توما الإكويني (ص 47). ويبيّن د. فرّاج، في سرده الدقيق للتاريخ، كيف أن أوروبا التي ساقت اليهود إلى الربا في العصر الوسيط هي ذاتها التي مارست العنف ضد اليهودي المرابي (ص 192). أمّا العامل الثاني الذي يوضحه هذا الكتاب فهو النظام الملِّي المتّبع في العصور الوسطى في أوروبا والذي فرض على اليهود الحارات والغيتوات، الأمر الذي عزز شعور الخصوصية لدى الجوالي اليهودية الأوروبية. ويبيّن المؤلف كيف أن سور الغيتو الدفاعي الذي اعتُبر امتيازاً في العصور الوسطى قد انقلب إلى سور حابس

في أول عصر النهضة (ص 54).

أمّا العامل الثالث الذي يفصّله هذا الكتاب، والذي كرّس عزلة الإنسان اليهودي، فهو العنف الديني – العرقي الذي استهدف اليهود ابتداء من انتصار المسيحية في الإمبراطورية الرومانية وانتهاء بالمحرقة النازية. ويضع المؤلف أمامنا بعض الوقائع الخاصة بعمليات الطرد المتلاحقة والمجازر المتكررة التي لحقت باليهود، ولا سيما حمامات الدم التي تزامنت مع الحملة الصليبية، كما يفصّل بعض التبريرات اللاهوتية والأيديولوجية لتلك الاعتداءات (ص 57). أمّا العامل الرابع الذي يفسّر انسلاخ اليهودي عن الأوروبي المسيحي، فيخص المكانة التي أعطاها لليهودية بعض الحركات البروتستانتية المسيحية، وخصوصاً منها الحركات الإنجيلية التي تعتمد على قراءة حرفية للعهد القديم. ويوضح المؤلف النظرة إلى اليهود الكامنة في اللاهوت البروتستانتي بدءاً بلوثر، مروراً بكالڤن والبيوريتانيين، ووصولاً إلى الحركات الإنجيلية في الولايات المتحدة في يومنا الحالي. إذ نجد في هذا البحث معلومات وافرة عن تلك الحركات التي رأت (وترى) في "عودة" اليهود إلى فلسطين بوادر نهاية العالم والقدوم الثاني للمسيح. ويشرح د. فرّاج هذه الفكرة بتقلباتها وأوجهها المتعددة، مبيّناً بوضوح تأثيرها في سياسة الولايات المتحدة ومواقفها المساندة لإسرائيل.

ولا بد من التوقف قليلاً عند هذا الموضوع لأننا لم نعطه حقه في تعليلاتنا للمواقف الأميركية وتحليلاتنا لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. ويجب التشديد على قول المؤلف إن المثقفين العرب درجوا "على توصيف العلاقة المميزة بين أميركا وإسرائيل بمصطلحات براغماتيكية من دون أن يَنْفذوا من السطح السياسي والاستراتيجي إلى العمق الديني – الثقافي الذي يبتدئ بهجرة الطُهريين [Puritans] الإنكليز إلى أميركا في القرن السابع عشر. وحين كان يستعصي على المثقف العربي تفسير الدعم الأميركي لإسرائيل بعوامل المصلحة كان يتكئ على مصطلح (اللوبي الصهيوني) ويحوّله إلى مفتاح سحري يوضح ما أُغلق عليه من أسرار السياسة الأميركية الملغزة" (ص 151).

بدلاً من الاكتفاء بتفسيرات مبسّطة من هذا النوع، يشرح د. فرّاج هذه العلاقة المميزة بين الأميركيين البيوريتانيين واليهود منذ القرن السابع عشر. فقد وصف هؤلاء المهاجرون إلى أميركا بلدهم الأم إنكلترا بـ "أرض مصر"، ونعتوا الملك جيمس الطارد لهم بـ "الفرعون"، واعتبروا أميركا "أرض كنعان الجديدة" و"أرض الميعاد"، وأسقطوا على أعدائهم من السكان الأصليين أسماء "أشور" و"الفِلِسْتة" (ص 173 – 175). ويتابع المؤلف هذه الظاهرة عبر التاريخ حتى الوقت الحاضر، إذ إن "45 مليون أميركي يصغون بانتظام لأقوال أنجيليين يجعلون من إسرائيل موضع عبادة" (ص 183).

إذاً، يفسر هذا الكتاب ظاهرة الخصوصية اليهودية وعدم اندماج اليهود في محيطهم الأوروبي (وبالتالي نجاح الصهيونية) استناداً إلى عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية حالت دون القبول باليهود في المجتمع الأوروبي كمواطنين عاديين، وعززت شعورهم بأنهم يختلفون عن محيطهم اختلافاً جذرياً. ويبيّن د. فرّاج أهمية هذه العوامل في تعزيز الهوية اليهودية وجعل الجوالي اليهودية الأوروبية أرضاً خصبة لنجاح الصهيونية، وهو ما ساعدها على تجييش أعداد كثيرة من اليهود، وإقناع القوى الاستعمارية الأوروبية بوجوب ذهاب اليهود إلى فلسطين لاستيطانها وإنشاء دولة فيها.

أمّا الشق الآخر لهذا الكتاب فيخص الموقف القائل بشرقية الثقافة اليهودية وصعوبة اندماجها في الثقافة الأوروبية بسبب تحلّيها بخصائص شرقية غير قابلة للذوبان في المحيط الأوروبي. يقول المؤلف مثلاً: "إن الأصول الثقافية الشرقية لليهودية هي التي جعلتها تستعصي على الرَّوْمَنَة والهَيْلَنَة" (ص 73). ويدّعي لاحقاً أن تلك الخصائص ذاتها كونت عقبة أمام اندماج الثقافة اليهودية في الثقافة الغربية الأوروبية منذ الإمبراطورية الرومانية وعبر العصور وصولاً إلى عصر الحداثة – وذلك على الرغم من محاولات متكررة للتوفيق بين الديانة اليهودية والفكر الاشتراكي والرأسمالي والليبرالي وغيرها من الأيديولوجيات الغربية.

لكن تحليل المؤلف هذا يرتكز على بعض الافتراضات القابلة للجدل، وأهمها أن ثمة ثقافة يهودية مشتركة حافظت على سمات شرقية ثابتة عبر العصور، وهو افتراض استخدمه بعض المفكرين الصهيونيين لإحياء المشاعر القومية في الجوالي اليهودية المتعددة. أمّا الافتراض الآخر فهو أن للشرق سمات ثقافية معينة تشترك فيها كل الثقافات التي انبثقت من الشرق، بما فيها اليهودية والمصرية القديمة والبابلية والكنعانية والفينيقية والعربية الإسلامية وما شابه. وهذا يفترض، بدوره، وجود قواسم مشتركة لحضارات مشتّتة في الزمان والمكان تميّزها من نقيضها الحضارة الغربية، الأمر الذي يؤدي إلى التسليم بوجود صراع الحضارات وصدام محتَّم بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية. أمّا الافتراض الثالث فيتعلق بالحضارة المسيحية التي يجب إسقاط السمات الشرقية عنها كي نقبل بقراءة د. فرّاج للتاريخ والتي تحُدث شرخاً بين الثقافة اليهودية الشرقية وثقافة محيطها المسيحي الغربي.

إذاً، بدلاً من اعتبار الهوية الثقافية اليهودية هوية شرقية في صميمها، وبدلاً من الاعتقاد أن الحركة الصهيونية أحدثت انقلاباً على هذه الهوية مستبدلة إياها بهوية ثقافية غربية، يجب التشديد على اختلاف ثقافات الجوالي اليهودية الأوروبية واستحالة اعتبارها ثقافات شرقية في الصميم.

ولعلنا أخطأنا في قراءة الشق الثاني من هذه الدراسة الغنية، بل نرجّح ذلك، لأن د.

فرّاج يسترشد صراحةً بعلم الاجتماع الخلدوني والماركسي: "لا تبحث عن سر اليهودي في دينه، بل عن سر الدين في اليهودي الواقعي." وإذا اعتبرنا أن لليهود الواقعيين اليوم جوانب كثيرة وينتمون إلى ثقافات متنوعة، فيجب أن نستنتج، لا محالة، أن ليس هناك سر واحد لليهود، وإنما أسرار كثيرة متعددة الصفات؛ وهو ما يعني استحالة اعتبارهم شرقيين في الأساس. أخيراً، لا بد من شكر المؤلف على تفسير بعض تلك الأسرار وتبديد الغموض الذي يلفها، وعلى تقديم حل لها للقارئ العربي.

محمد علي الخالدي

أستاذ الفلسفة في الجامعة
الأميركية في بيروت

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf